الفلسفة التصورية

Idealism

هل ما نشعر به هو الحقيقة ؟

فلنبحث الشعور بالرؤية : هب إني أرى شجرة على بُعد ربع كيلو متر مثلاً . ليست الشجرة في عيني ولا في دماغي . على ان ما هو في عيني هو سلسلات موجات نورانية أحدثت شعوراً في دماغي اعتدت ان أسميه شجرة كلما طرأ على باصرتي وانتقل بالاسلاك العصبية الى مركز من مراكز الدماغ ، فكلما وقع على شبكية عيني مثل هذه الموجات وانتقلت الى دماغي قلت هذه صادرة من انعكاس النور على شجرة . إذاً فالذي في دماغي هو شعور بهذه الموجات . هو صورة تمثل شيئاً في الخارج البعيد عن عيني ، فليس هو الحقيقة ، بل هو تصوُّر للحقيقة أو صورة لها ؟ Idea فهل هذه الصورة تطابق الحقيقة ؟

إني أدرك وأفهم هذه الصورة النورانية التي في دماغي فقط . وأما الحقيقة الخارجة عن دماغي فلا أدركها . أرى الشجرة ذات أغصان وأوراق وثمار . فلما دنوت منها وجدت شكلاً غير الشكل الذي رأيته من بعد : — رأيت عصفوراً كنت أظنه ثمرة ، ورأيت ثعباناً يتحفز للوثوب عليه ، وكنت أظن الثعبان غصناً تلعب به الريح . فإذاً الذي كنت أدركه هو الصورة القائمة في عقلي التي رسمها الشعور ، انتقل عن شبكية عيني الى خليات دماغي . وأما حقيقة الشجرة فلم أدرك .

ثم لما دنوت الى الشجرة هل أدركت الحقيقة ؟ هب اني أمسكت الغصن وقطفت الثمرة وأكلتها فهل أدركت الحقيقة ؟ اذا دخلت بهما الى المعمل الكيماوي وحللت وجدت الخضرة التي في ورق الغصن هي مادة اليخضور Chlorofil الذي ينقل الطاقة من نور الشمس الى الغصن أو الشجرة حيث تخزن هناك ، ووجدت ان مادة الغصن والثمرة مؤلفة من غازات الهيدروجين والأوكسيجين والنيتروجين وعنصر الكربون . فإذن حين رأيت الغصن والثمرة

لم أفكر بحقيقتهما ، وما أدرك عقلي منهما إلاّ الشكل واللون والحلاوة اذا أكلت الثمرة . وأما حقيقتهما فلم أدرك بتاتاً .

وهب أني خلقت ذرات العناصر الأربعة وعثرت على الكهرب والكهيرب ، ثم صدمت أحدهما بالآخر (لو كان هذا بامكاني) لحدثت لمعة ضوئية تبددت في الفضاء . فهل هذه الظاهرة كانت في عقلي حين رأيت الشجرة والثمرة ، وهل أنا واثق من أن هذه الظاهرة العلمية حقيقة،أم هي نظرية علمية تحتاج الى براهين لاثباتها ؟

حاصل الكلام ان الحقيقة الواقعة لا ندركها في عقلنا حتى ولا في شعورنا . فهي غريبة عنّا ، وإنما الذي يدركه عقلنا هو شعور طرأ عليه من جرّاء موجات كهربائية صدرت من المادة ورسمت صورة في الدماغ . فالتصوّر مخالف كل المخالفة للواقع ، وادراك العقل محصور في هذه الحجمة التي لاتتجاوز سمكها الألف سنتيمتر مكعب إلاّ قليلاً ، وهو البضاعة » التي يتداولها العقل هي هذه الصور الواردة اليه في الأسلاك العصبية بين شبكية العين وخليّات المراكز الدماغية . وجميع المدركات العقلية مصنوعة في هذه الخليات الدماغية . اذاً المدركات العقلية غير مطابقة للوقائع المادية الحادثة في الخارج .

ولذلك يقول الفلاسفة التصوريون Idealists ان العالم كله موجود في العقل وليس خارج العقل شيء منه . حيث لا عقل فلا عالم . واذا فُقِدت العقول انتفى العالم كله . وهو قول هراء في نظر الواقعيين Realists . اذاً كيف يبرهن التصوريون نظريتهم ، أهم لوك والمطران بركلي وهيوم . وفيما يلي خلاصة برهان بركلي ، وهو أغرب وأعجب ما ورد في الفلسفة . وقد أوردها هذا المطران الفيلسوف في شكل مناقشة بين شخصين سماها فيلونوس وهيلاس .

فيلونوس يوجه الخطاب الى هيلاس . هل تعتقد ان الشكل والحجم (الامتداد Demention) اللذين تراهما موجودان ماديًّا بالفعل خارجاً عن مقلتيك ؟

— هيلاس — نعم

فيلو ... هل جميع الحيوانات تدرك نفس هذا الفكر في الشكل والامتداد (الحجم) الذين تنظرها وتحسها ؟

هيلا — بلا شك ان كانت تفكر ولها قوى التفكير .

فيلو — قل يا هيلاس : أتظن ان الحواس مُنِحت لجميع الحيوانات لاجل المحافظة على بقائها متمتعة بالحياة ؟ أو إنها مُنِحت للانسان وحده لهذا الغرض ؟

هيلا : — لم أبحث هذا الأمر . ولكني أعتقد أن جميع الحيوانات تستعمل هذه الحواس على السواء .

فيلو — اذا كان الأمر كذلك أفليس من الواجب أن تُمكِّنها هذه الحواس ان تحس بأذرعها وبالاشياء التي يمكن أن تضرها ؟

هيلا — طبعاً :

فيلو — إذن المفروض ان الحشرة الصغيرة كالسوسة مثلاً ترى أرجلها حتى الأشياء التي تساويها حجماً أو أصغر منها كأنها أجسام ذات إبعاد أو أحجام ، حتى ولو كانت في نفس الوقت تتراءى لك أنها هيهات أن تُرَى بالعين أو يمكن أن تُشاهد كسائر النقط الصغيرة العديدة .

هيلا — لا أنكر هذا

فيلو — وأنها تظهر أكبر حتى للمخلوقات التي هي أصغر من الحشرة

هيلا — نعم هكذا تظهر

فيلو — فاذاً ما يتعذر عليك أن تميزه يظهر للحشرة ضخماً كالجبل .

هيلا — موافق .

فيلو — فهل يمكن أن الشيء الواحد يكون في نفس الوقت مختلف الحجم (الامتداد) ؟

هيلا — من السخافة أن نتصوَّر هكذا .

فيلو — ولكن مما سلَّمتَ به ينتج أن الحجم الذي تراءى لك والحجم الذي تراءى للحشرة (كما تراءى لسائر المخلوقات التي هي أصغر منها) هو الحجم الحقيقي لقدم الحشرة . فكأنك سلمت بالمحال أو بسخافة .

هيلا — نعم أرى عقدة صعبة في هذه القضية .

فيلو — إذاً أنا اعترفت بأنه ليس لأي جسم أو مادة خاصية فيه يمكن أن تتغير من

غير أن يتغير الشيء نفسه ؟

هيلا — أجل

فيلو — ولكن حين ندنو الى الشيء أو نبتعد عنه فالحجم المنظور يتغير فيكون قليلاً على مسافة كذا ١٠ مرات أو مئة مرة أكبر منه على مسافة أخرى . أفلا ينتج إذاً من هذا أن الحجم المنظور ليس في الشيء نفسه .

هيلا — إني حيران في هذه المسألة . لا أدري كيف أتكر فيها

فيلو — يتقرر حكمك اذا كنت تجرأ أن تفكر تفكيراً حراً في هذه القضية كما تفكر في سائر القضايا الأخرى، ألا تسلم ان لا الحرارة ولا البرودة كائنا في الماء (أي ليس الماء حاراً ولا بارداً) لأنه يظهر لك دافئاً لليد الواحدة وبارداً لليد الأخرى ؟

هيلا — نعم

فيلو — أليس الأمر كذلك حين نستنتج بأنه ليس للشيء حجم أو شكل لأنه يظهر للعين الواحدة صغيراً وأملس ومستديراً في حين أنه يظهر للعين الأخرى كبيراً وغير مستقيم وذا زوايا ؟

هيلا — ولكن هل يحدث هذا فعلاً ؟

فيلو — يمكنك في أي وقت أن تختبر المسألة بنفسك بأن تنظر بعين واحدة مجردة وأخرى من خلال الميكروسكوب .

هيلا — لا أدري كيف أؤيد هذا القول . ومع ذلك لا أقدر أن أنكر الحجم (الامتداد) . أرى عدة نتائج شاذة في هذه القضية .

فيلو — تقول شاذة ؟ بعد هذا الاذعان الذي أذعنته أؤمل أنك لا تصر على شيء من هذا الشذوذ ، ومن جهة أخرى ألا ترى أنه من الشذوذ ان التعليل المطلق الذي يشتمل على جميع الصفات أو الخواص المشاهدة يشتمل أيضاً على الحجم كبيراً أو صغيراً ؟ إذا كنا نسلم بأنه لا تصور ولا شبه تصور يمكن أن يوجد في مادة غير شاعرة : إذاً ينتج بالتأكيد أنه لا حجم ولا أي شكل مما نحس به أو نتخيله أو يكون عندنا تصور له يمكن أن يكون له وجود فعلي ملازم للمادة . دعنا من الصعوبة التي لا بد منها في ادراك جسم عادي

معتزل عن الحجم أو متميز عنه (أي مجرد منه) بأنه أساس للحجم، ولكن الصفة أو الخاصية المحسوسة مهما كان نوعها، شكلاً أو صوتاً أو لوناً، فيستحيل أن توجد في الشيء الذي لا يشعر بها — انتهى.

وقد علق الدكتور جود C. E. M. Joad أستاذ الفلسفة في جامعة لندن على نظرية بركلي وهذا ملخصه: يستنتج أن فلسفة بركلي تنحصر في أمرين رئيسيين: أولاً ان جميع الصفات أو الخصائص التي نشعر بها في الأشياء يتوقف وجودها على عقولنا. فإذاً لا توجد الأشياء إلا ما دامت معروفة لعقولنا، وعقولنا تدركها، وبعبارة أخرى، لا وجود إلا للتصور الذي في العقل، وان وجود الشيء هو ادراكه ليس إلا. هذا هو زبدة فلسفة بركلي التي أخذت شأناً كبيراً في الفلسفة.

ان بعض الحقائق واضحة وقريبة للعقل بحيث أن الانسان لا يحتاج إلا أن يفتح عينيه لكي يراها. مثال ذلك هذه الحقيقة المهمة، وهي بالاجمال ان هذه الأجسام أو الأشياء التي يتألف منها الكون لا وجود لها إلا إذا لم يكن ثمت عقل يدركها. فوجودها هو أن تكون مدركة أو معروفة.

ثانياً: أن الصور الموجودة في عقولنا والتي تنحل إليها معرفتنا للعالم الخارجي إنما هي تصور الصفات أو الخصائص البسيطة. وما فيه معرفة محسوسة إنما هو تصور الصفات أو الخواص وليس الأشياء نفسها بالذات.

نحن نعتقد أننا نملك عدداً من الصور (الدماغية) المنقولة عن شيء مادي واحد. نعتقد أن تصورنا الحلاوة أو الخشونة أو التربيع أو البياض — كل هذه صور لقطعة سكر (مثلاً). ولكن بركلي يقول ان ما نراه ما هو إلا تنوع نور وألوان، وما نحس به ما هو إلا قساوة أو لطافة، سخونة أو برودة، خشونة أو نعومة. فما علاقة هذه التصورات بهذه المادة؟ أو كيف يمكن أن يرى أحد الناس سبباً لأن يعطي إسماً واحداً لمجموعة هذه التصورات المختلفة قبل أن يختبر وجودها معاً؟ فإذا كنا ننظر الى المسألة نظرة عميقة وجب أن نعترف أننا لا نرى نفس الشيء ونحسه. فما نراه شيء وما نحسه شيء آخر.

اذا دخلت الى غرفة وقلت ان هذا الشيء الذي أراه هو مائدة، فالاجراء العقلي الذي (بحسب رأي بركلي) حدث في دماغي هو هذا بالتقريب: — فأولاً هو اختبار نظري وهو الذي يسميه بركلي «التصور البصري»، ورؤية سطح لامع أسود بيضي الشكل. اذاً استدل بناء على اختبار سابق انه اذا كنت أتقدم بعض خطوات الى هذا السطح اللامع

الأسود ابيضي الشكل احصل على اختبار آخر وهو هذه المرة قاس وبارد الملمس . وإذاً يكون عندي حقيقة تصور آخر بحسب تسمية بركلي له «تصور لمسي» ولأن التصور البصري للسطح اللامع والأسود والبيضي كان في الماضي مصاحباً للتصور اللمسي للقساوة والبرودة ، استدل على أن هذه الصور هي للشيء نفسه ، واستنتج أن شيئاً ماديًّا واحداً أسود ، ولامعاً وبيضي الشكل وقاس وبارد هو مصدر تصوراتي .

والمهم ان أحفظ في ذاكرتي هذين الأمرين عن بركلي . أولاً ان كل ما نعرفه هو تصور أو صورة في العقل الذي يدركه أو يعرفه ، وانه يلزم عنه أن العقول وحدها والصور التي في العقول هي الموجودة . وثانياً ان تصوراتنا ليست مادية طبيعية كالمائدة أو الكرسي بل هي خواص حساسة أو محسوسة كالحرارة والقساوة والسواد والتربيع الى آخره

إذاً بأي معنى الأشياء الطبيعية موجودة ؟ فاذا كانت نظرية بركلي صحيحة فكيف نؤكد ان الأشياء الطبيعية موجودة حين لا نراها . فلنفرض أني خرجت من غرفتي فهل تكون على صواب ان حسب ان الغرفة زالت من الوجود وإنها تعود حين أعود اليها ؟ بركلي يرفض هذه الظنة . فكل ما أتى به في هذا الموضوع : إنه لكي نزعم أن الشيء موجود ، يجب ان نعلم أنه موجود في عقل أو انه يتوقف على وجود عقل . ولكن ليس ضروريًّا ان يكون هذا العقل عقلي . يمكن أن يكون عقل الله (في رأي بركلي) فالصور العقلية التي نعرفها توجد مستقلة عن معرفتنا ما دامت موجودة باستمرار في عقل الله

بهذا الاعتبار ميز بين الادراك الحسي (أي الشعور) والتخيل . الأشياء التي أشعر بها تأتي الى عقلي سواء أردتها أو لا . ولكن الأشياء التي أتخيلها أطلبها أو ألفيها من مخيلتي متى أشاء . فالفرق إذن ؟ هو أن الأشياء التي أشعر بها التي هي صور في عقلي هي كذلك صور في عقل الله وهو يجريها الى عقلي . وأما التي أتخيلها فوجودة في عقلي وتذهب منه متى لم أعد أتخيلها .

فكل ما نسميه العالم الخارجي موجود على الدوام حتى حين لم نعد نشعر به لان الله موجده وحافظه . فواضح اذاً اننا اذا لم نسلم بنظرية بركلي بأن الله أعطى حقيقة مستقلة لعالم وجوده ينتهي متى لا نعود نعلم به ، ننتهي الى التسليم بأن الأشياء الوجيدة في الوجود هي حالات العقلية فقط .

المحور — ما دامت مدركاتنا الخارجية تتوقف على مشاعرنا الحسية التي تنقل صورها عن العالم الخارجي ، فلا أستطيع ان أنكر وجود العالم الخارجي إلا في عقلي وعقل الله . فهو موجود على كل حال ما دامت الحواس الحسية تنقل صوره الى دماغي .